العدد (2002) السنة الثامنة - الاحد (2) كانون الثاني 2011 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

تمنيات مكررة في العام الجديد ١

محمد سعيد الصكار
mohammed_saggar@yahoo.fr

طابت أيامكم، وبوركت أعيادكم، ودامت أفراحكم، وجنّبكم الله المتاعب، ومهّد لكم سبل الراحة والعافية والعيش الرغيد والنجاح في مساعيكم ومشاريعكم للعام الجديد، وخفف عنكم ضغط الأخبار، وفضول الفضائيات، وجنّبكم القيل والقال، وارتباك الأعمال، وجعل لكم منفذاً للهروب من ضجّة السياسيين، وفضول المتطفلين، وجعل لساعاتكم حضوراً في ازدحام الأشغال، واحترام الوقت الذي تشير إليه الساعات، فإن الربح الأوفر هو ما تشير إليه ساعاتكم لتذكركم بأن الوقت يجري، ولا بدّ للحاق بموكب الزمن، واستثمار ما بين أيديكم من فسحة زمنية لتشحنوها بما هو نافع ومفيد لكم ولأصدقائكم ومعارفكم ووطنكم ومواطنيكم.

فللزمن حرمة، والحياة قصيرة، ومن الواجب احترام هذه الحرمة، فالزمن هدية سريعة العطب لا بد من العناية البالغة بها، والتأمل في دلالاتها، واستثمارها بأجمل وأشرف ما نقدر عليه.

والزمن متقلب سريع الهروب، لا ينتظر المتمهلين، ولا يلتفت إلى المتخلفين، ولا يمكن اللحاق به إلا بالمثابرة ووعي أهميته.

وللتعامل مع الزمن فنون تسعفنا بها تجارب من سبقنا وتختصر علينا المسافة، والرابح الرابح من يسير مع الزمن جنباً إلى جنب، فلا يتخطاه فيتخبّط في المجهول، ولا يتخلف عنه فيبقى مراوحاً في مكانه والزمن يجري.

ونحن، العرب، لنا من الوقت مثلما لنا من النفط والشمس والماء وغيرها من نعم الله، ولكننا لم نستثمر من هذه الخيرات التي منحها الله لنا، غير نعمة واحدة، نسأل الله أن يديمها، هي النفط، وللنفط بركات ما زلنا نرفل في ظلالها، ونستمتع في هباتها، ولكننا قلما فكرنا في ما بعدها، وتلك قضية جديرة بالمراجعة والتقدير وتصويب مسار أحلامنا وخطط مستقبلنا، والتأمل في ما تهبنا الشمس ويمنحنا الماء.

الفائض من وقتنا كالفائض من أموالنا؛ كلاهما بحاجة إلى ضبط المعايير والدقّة في تحديد الآفاق، وانتقاء ما يجعل لنا حضوراً في الزمان الذي نعيش فيه، ويرصد لنا آفاق المستقبل، ويجعلنا في طمأنينة وأمان من تقلبات الزمان؛ فهل نحن كذلك؟

واقع الحال يشير إلى ثغرة بين ما نحن فيه وبين موكب الزمن، ففي حين ينشغل العالم بهموم البشرية كحقوق الإنسان ومشاكل البيئة والتنمية وقضايا الطاقة والمطبّات السياسية والاقتصادية وما يتحكم في حياتنا ويستوجب النظر إليه والعمل فيه، ننشغل نحن بالفتاوى الارتجالية وتبديد الثروة والتصرفات الصبيانية في معالجة الأمور الجدية ؛ الأمر الذي وضعنا في موقف أقل ما يقال فيه إنه لا يأبه بحركة التاريخ وضرورة أن يكون لنا حضور قوي فيها، والعمل الجاد المخلص في إيجاد موضع قدم لنا في دورة الزمن، واستثمار كل طاقاتنا لتعزيزه أسوة بما يسعى إليه النابهون.

لا يكفي أن نستورد معطيات الأفكار من غيرنا، نحن بحاجة إلى غربلة ما لدينا من أفكار، واستبعاد ما يُفرض علينا من قيم ومعايير عفّى عليها الزمن لا يجد مبتدعوها من المنطق والحكمة ما يجعلها في مصاف المأمول في هذا الزمن العاصف.

ولتكن لنا نظرتنا إلى ما نحن فيه، نظرة الناقد المتأمل المنتقي لما هو أصوب وأدق وأكثر احتراماً لعقل الإنسان. وإذا كان ما فاتنا كثير، فاستدراكنا لما فات واستقراء مواطن الخلل مطلوب وضروري؛ والأوان قد حان لمراجعة كل ذلك في بداية هذا العام الجديد الذي يبدو محمّلاً بالكثير من المفاجآت.

وبانتظار ما يدّخره لنا العام الجديد، ندعو الله أن يعود عليكم باليمن وحسن العاقبة.

× نشر هذا المقال في جريدة (البيان) الدبوية قبل سنتين، وبسبب سوء حالتي الصحية، ومناسبة الكلام على السنة الجديدة، لم أجد حرجا في إعادة نشره هنا ما دامت الظروف على حالها! ولعل (المدى) وقراءها يغفرون لي ذلك.

روبيرتو بولانو: نجمة الشعر البعيدة

مصطفى ناصر

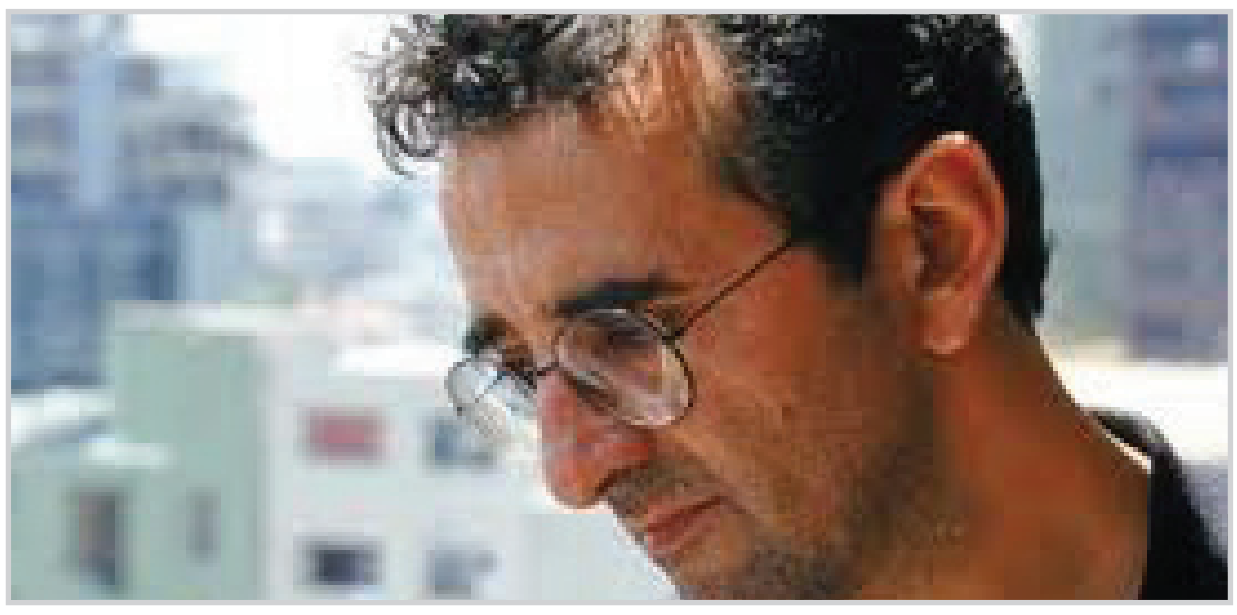

صحيح أن أعمال الروائي التشيلي بولانو ذات طابع سياسي، لكنها بطريقة أو بأخرى مشبعة بالمشاعر الإنسانية التي تنأى بها عن أن تكون مجرد تقارير دوغماتية، فهي أعمال مشحونة بأسرار النفس البشرية التي تعاني من القهر ونوبات الجنون والشذوذ، إنها بشكل أو بآخر لا بد أن تذكرنا بدوستويفسكي. كان بولانو يكتب بأسلوب متفرد، يعمل وحده بلا رقيب، يسعى للاختراق، فلا عوائق تكبح تجاربه الإبداعية، وهو بعمله هذا قد ابتكر طريقته الخاصة في أن يصبح كاتباً عظيماً ينتمي لأمريكا اللاتينية.

عاش بولانو غريباً عن وطنه برفقة زوجته الاسبانية وطفليهما، كان يعتبرهم "وطنه الوحيد" كما صرّح في آخر مقابلة أجريت معه قبل وفاته. في قصصه غالباً ما تكون شخصياته روائيين أو شعراء يسعون بطموح لتحقيق أهدافهم، إنهم أبطال بطريقتهم الخاصة في مهاجمة المعتقدات البالية، وأحياناً يكونون من رجال التحري الأوغاد. تتضمن روايات بولانو تأملات عميقة في أسطورة الشعر، والعلاقة المتداخلة بين الشعر والجريمة، والعنف الذي لا مفرّ منه في الحياة الفوضوية الحديثة لمدن أمريكا اللاتينية، وانشغالات الإنسان في مرحلة الشباب، والحب، والموت، ومبادئ الجمال. يظهر في كتابات بولانو على الدوام انشغال عميق بطبيعة الأدب، والهدف منه وعلاقته الغنية بالحياة. في مواجهة حياة سياسية يسودها الاضطهاد، وانقلابات مفاجئة تنذر بالأخطار، يستمر الروائي بتذوق نكهة الكلمة وهو يشعر بنشوة لا حدود لها، فهذا بحد ذاته وفقاً لرأي بولانو مصدر للإلهام والسلوى، والسخرية أيضاً.

ولد الروائي والشاعر التشيلي روبيرتو بولانو في سانتياغو بتاريخ ١٨ نيسان ١٩٥٣ وتوفي مبكراً عن عمر ناهز الخمسين بتاريخ ١٥ تموز ٢٠٠٣، كان أبوه يعمل سائق شاحنة (وملاكماً أيضاً). في سنة ١٩٩٩ فاز بولانو بجائزة "رومولو غالیغوس" عن روايته الأولى (رجال التحري المتوحشون)، ومُنح سنة ٢٠٠٨ ، أي بعد وفاته، جائزة حلقة النقاد للكتاب الوطني للقصة عن روايته التي تحمل عنوان (٢٦٦٦)، وقد نشرت هذه الرواية سنة ٢٠٠٤.

أمضى بولانو مع أخته سنوات حياتهما المبكرة في الجنوب على الساحل التشيلي. بحسب قوله كان طفلاً نحيفاً، ضعيف البصر، محبّاً للمطالعة بنهم، وغير واعد بأي مستقبل زاهر. كان يعاني منذ صغره من خلل وراثي بسيط في الدماغ يبدو أنه قد أثّر كثيراً على قدرته لاستيعاب الدروس، حيث كان على الدوام يشعر في المدرسة بأنه غريب أو دخيل على مثل ذلك الجو.

انتقل مع عائلته سنة ١٩٦٨ إلى مكسيكو سيتي، حيث تخلى نهائياً عن المدرسة، وعمل في مجال الصحافة منذ سن مبكرة، وما لبث أن أضحى مؤيداً لقضايا يسارية. أمضى بولانو معظم فترة مراهقته متشرداً، حيث عاش تارة في وطنه تشيلي، وأخرى متنقلاً بين المكسيك، والسلفادور، وفرنسا، واسبانيا. في السبعينات، أصبح بولانو تروتسكياً وعضواً مؤسساً لحركة شعرية عُرفت باسم (انفراريالزمو) أو "ما تحت الواقع".

بعد فترة قصيرة أمضاها في السلفادور، برفقة الشاعر روك دالتون ومقاتلي جبهة التحرير الوطني، عاد بولانو إلى المكسيك، وعاش منذ ذلك الحين كشاعر بوهيمي أو طفل كبير مزعج. يقول عنه محرر أعماله جورج هيرالدي، "إنه أديب محترف، لكن من المؤسف أنه مثير للمشاكل ويتجنبه اغلب الناشرين، فهو في أعماله يندفع بحماس لتجريب مختلف الأساليب الأدبية التي تثريها قراءاته الواسعة". ربما كانت لسلوكه الغريب هذا علاقة قوية بأيديولوجيته اليسارية ونمط حياته الفوضوي.

هناك مرحلة مهمة في حياة بولانو، أشار إليها بأشكال مختلفة في العديد من أعماله، بدأت سنة ١٩٧٣، عندما غادر تشيلي لكي "يساعد في بناء الثورة" كما قال، وذلك من خلال السعي لإقامة نظام اشتراكي. بعد انقلاب اغوستو بينوشيت ضد الليندي، تم اعتقال بولانو وذلك للشك في كونه "إرهابياً" وأمضى ثمانية أيام رهن الاعتقال. وقد تم إنقاذه من قبل اثنين من زملائه السابقين في الدراسة كانا قد أصبحا حُرّاساً في السجون. ويصف بولانو تجربته هذه في قصة قصيرة بعنوان "بطاقة رقص".

انتقل بولانو إلى أوربا سنة ١٩٧٧، واستقر به المقام أخيراً في اسبانيا، حيث تزوج وعاش على ساحل البحر الأبيض المتوسط بالقرب من برشلونة، وقد عمل في بداية الأمر في غسل الأطباق، وحارس مخيمات، وخادماً في الفنادق وحتى جامع قمامة. كان يعمل نهاراً ويكتب في الليل. ومنذ مستهل الثمانينات من القرن الماضي عاش في قرية ساحلية على ساحل كاتالان تسمّى بلينز.

تكمن العبقرية في أعمال بولانو في أنها تطرح سؤالا جوهريا، وذلك من خلال التعبير الحاد في سخريته إلى درجة أن القارئ يمكن أن يتعرّض لجرح فيسيل دمه على الصفحات. ذلك السؤال يلحّ علينا حين نلتمس شيئاً من الراحة في الفن، إذا نظرنا إليه كمثل للجمال، إذا وجدنا فيه العذر للاختباء عن العالم المنشغل عنا كثيراً: هل من الشجاعة أن نقرأ أفلاطون أثناء انقلاب عسكري، أم هو شيء آخر؟"

يقول بولانو، في قصة قصيرة له بعنوان "طبيب الأسنان" على لسان إحدى شخصياته "ما معنى الفن، إنه قصة الحياة بجميع جزئياتها. تلك القصة المليئة بالأسرار التي لن نعرفها أبداً، رغم أننا نعيشها كل يوم، نحن نعتقد بأننا أحياء، نتصور أننا نفهمها، أما الأمور التي نتغافل عنها فهي لا تهمنا بشيء. لكن كل شيء في قصة الحياة بالغ الأهمية! ولكننا لا ندرك هذا. نقول لأنفسنا إن الفن يجري في مسار وحياتنا جميعاً في مسار آخر، ولا ندرك أن ذلك كله كذبة."

يقول الناقد جوناثان ليثيم معلقاً على كتابات بولانو، "إن قراءة بولانو تشبه الإصغاء إلى قصة سرية، فهو يعرض عليك نسيجاً من الجزئيات، كأنك تراقب مسارات الفن والحياة تلتقي عند الأفق وتمكث هناك، كأنما هو حلم نستفيق منه ونحن نشعر بالإلهام والاستعداد لأن ننظر للعالم بانتباه أكثر."

بقي بولانو لفترة طويلة يكتب الشعر قبل أن يتحول نهائيا إلى القصة في عقده الأربعين. في مقابلة أجريت معه قال بولانو إنه بدأ يكتب القصة لأنه أحس بالمسؤولية إزاء مستقبل عائلته، حيث عرف أنه لن يتمكن أبداً من ضمان حياة كريمة لها من الشعر. لكنه ظل يعتبر نفسه شاعرا بالأساس. كان يسير على خطى الشاعر الذي يُحبه كثيراً نيكانور بارا، ومع ذلك فقد اعتمدت شهرته على النطاق العالمي بالتأكيد على رواياته ومجاميع قصصه القصيرة. رغم أن بولانو اعتنق منهج حياة الشاعر البوهيمي في بداياته، إلا أنه أنتج أعمالا إبداعية مهمة في مجال القصة في التسعينات، وسرعان ما أصبح بولانو شخصية أدبية مرموقة في الأوساط الأدبية في كل من اسبانيا وأمريكا اللاتينية.

في العقد الأخير من حياته اصدر بولانو عدداً كبيراً من الأعمال المهمة، يتألف من القصص القصيرة والروايات التي لاقت صدى واسعاً لدى النقاد، ومن بين أهم رواياته التي نشرت خلال هذه الفترة: (نجمة بعيدة)١٩٩٦، و(أدب النازية في الأمريكتين) ١٩٩٦، وهي موسوعة روائية لكتاب القصة الذين استلهموا أعمال بورخس و جي أر. ولكوك. و(رجال التحري المتوحشون) ١٩٩٨، ونشر بولانو مجموعتي قصص قصيرة هما (مكالمات هاتفية) ١٩٩٧، و(بنات الهوى القاتلات) ٢٠٠١ نالتا جوائز أدبية أيضاً. ومن مجاميعه الشعرية المهمة (الكلاب الرومانسية) ٢٠٠٠. اكتشفت لبولانو بعد وفاته كتابات غير منشورة بين أوراقه. منها روايته (٢٦٦٦) ومجموعة قصص (الأمسيات الأخيرة على الأرض) ٢٠٠٦، وغيرها من الأعمال.

كانت تنتاب بولانو مشاعر متضاربة إزاء بلده الأم تشيلي، حيث زار بلده مرة واحدة بعد المنفى الذي اختاره بنفسه. عُرف عن بولانو هجماته القاسية على الروائية إيزابيل الليندي وأعضاء آخرين في المؤسسة الأدبية الرسمية. "يبدو أنه لم يكن يصلح للعيش في تشيلي، فالرفض الذي مارسه طوال حياته تركه حُراً في أن يقول ما يشاء، وربما كان هذا شيئاً مُلهما بالنسبة للكاتب،" هكذا علق الروائي والكاتب المسرحي التشيلي أريل دورفمان.

في روايته الرائعة (نجمة بعيدة) التي نشرت أول مرة سنة ١٩٩٦ رغم قصرها هناك مزيج غريب من الأفكار عن الجريمة، والتصوير الفوتوغرافي والشعر الذي كان يسطع وهجه على السماء ويُكتب بالدخان المنبعث من طائرة مقاتلة. هذا العمل مليء بالسخرية ويتعامل مع فترة من تاريخ السياسة في تشيلي بأسلوب متشنج وأحياناً مثير للتهكم. إنها مشروع يستخدم وسائل متنوعة تختلط فيها كتابة الشعر في السماء، وتصوير أشلاء الضحايا فوتوغرافياً، والجريمة، والتعذيب. السارد الذي لا يذكر المؤلف اسمه يقابل ذلك الإنسان الممسوس بالشر في أمسية شعرية فيعرف انه بعيد كل البعد عن أن يكون مجرد شاعر من خلال منعطفات خطيرة في حياته تثير الاستغراب. أما المرة الثانية التي يراه فيها فهي عندما كان الراوي يقف في معسكر اعتقال للناشطين السياسيين، حيث كان يحملق في السماء ويتتبع حركة طائرة حربية قديمة من الحرب العالمية الثانية، فإذا به يرى الطيار يكتب أبياتاً من الشعر مستخدماً الدخان الذي ينفثه محرك الطائرة فوق جبال الانديز. لم يكن الطيار سوى رويز تاغل، الذي كان في ذلك الوقت يخدم في سلاح الجو التشيلي باسمه الحقيقي كارلوس ويدر. خلف كل عمل شرير تنسج حباله في ظلمة حكم استبدادي، كان الراوي، وبشكل متزايد مهووساً بالشك بأن يد ذلك الشاعر الصامت المريب تقف وراءه.

جاء موت بولانو المفاجئ سنة ٢٠٠٣ بعد فترة طويلة من المعاناة من تدهور صحي. لقد افترضت وسائل الإعلام أنه كان في مرحلة من حياته مُدمناً على الهيروين وأن سبب موته فشل في الكبد نتج عن إبر حقن ملوثة كان يستعملها أثناء أيام الصعلكة التي عاشها. إن مدى صحة هذا الادعاء شيء مشكوك فيه حيث أنكرت زوجته ذلك بشدة وكذلك صديقه المقرّب أنريك فيلا ماتاس.

قبل ستة أسابيع من وفاة بولانو، احتفي به في مؤتمر دولي حضره بنفسه في سيفايل، واعتبره روائيون من أمريكا اللاتينية من أكثر الشخصيات أهمية بين أبناء جيله. وصرّح صديقه الروائي رودريغو فريسان في إشادته ببولانو، "لقد بزغ نجم بولانو ككاتب في زمن لم تعد فيه أمريكا اللاتينية تعتقد بالمدن الفاضلة، زمن أضحت فيه الفردوس هي الجحيم، وكان الإحساس العالي بالوحشية وبالكوابيس التي تقضّ مضجع الإنسان المعاصر وسعيه الدائب للهرب من شيء مرعب يتربص به هي التي دفعته لكتابة أعماله الروائية."

الثقافة والهوية والتشدد في القرن الجديد

لطفية الدليمي

بعد انقضاء عقد على الألفية الثالثة تقهقرت الثقافة العربية، وتردّت أوضاع المثقفين، وغابت أية رؤية منهجية لدى الأنظمة الحاكمة لتخطي حالة الجمود الثقافي. وبات واقعنا الثقافي العربي واقعا خربا وهو خراب ناتج من تقهقر المجتمعات العربية وتفككّ بناها وصعود القوى المتطرفة، إضافة الى انتهازية أعداد كبيرة من المثقفين العرب سعيا وراء المكاسب والشهرة السريعة.

وقد تضافرت عوامل خارجية على خلق هذا الاختلال البنيوي: منها تسيد القطب الواحد وهيمنة ثقافة واحدة على عالمنا عملت على إزاحة معظم المعارف والثقافات الإنسانية وتراث الإنسانية الشاسع، واستبدلتها بثقافة الـ "تيك أواي" التي تروّجها الميديا والفضائيات، و التي غدت بديل الكتاب والمدرسة والمنتدى الثقافي.و شاعت ثقافة الاستهلاك وفاقمت من تردي أوضاع النساء بفرض ثقافة العيب والعورة، فترنحت المجتمعات العربية بين حتميات التغيير والانفتاح ودعوات تكفير المفكرين والكتّاب والتحريم والحظر وإهدار الدم.

وترسخ الخلل بانعدام الثقة بين المثقفين والسلطة وهيمنة اقتصاد السوق على المنتج الثقافي وافتتان كثير من الأدباء الجدد بموضوعة "البيست سيلر" التي تستغلها دور النشر التجارية من دون اعتبار للقيمة الفنية والإبداعية، وهيمنة اقتصاد السوق على أعداد كبيرة من المثقفين وقبولهم بأناس غير أكفاء لقيادة مؤسسات ثقافية، وتفشت تواطؤات البيع والشراء والنفعية.

مع بروز الحاجة الى تعزيز التعددية الثقافية التي صارت شعارا للنسق الديمقراطي العالمي، تفككت المجتمعات شذرات، وبدل ان نتجه الى حوار الثقافات الوطنية وتماسكها، سقطنا عمليا في صدام الثقافات. فهناك لغة مخادعة ومفرغة من معانيها، يستخدمها الساسة كالمناداة بالتعددية وقبول المختلف الذي بشرت به الديمقراطية، ثم بقيت محض شعارات يناقضها التطبيق على ارض الواقع، وها نحن نقطف الثمار السامة: قمعا للحريات وتحجيما للثقافة وتراجعا لمستويات التعليم وارتباكا في مفهوم الهوية.

هناك مخاوف كبيرة إزاء التردي المريع للأوضاع المجتمعية والثقافية والقيمية، وهناك قليل من الأمل في وقوف القوى الفاعلة ثقافيا في وجه الانحطاط والتقهقر، مع علمنا بأن هذه القوى لا تملك، بفعل تهميشها، الأدوات التي تملكها القوى المهيمنة، بل انها مستهدفة من قبل تلك القوى ومثقفي السلطة ومدعي الفضيلة من منافقي السياسة. فقد جرى تجهيل المجتمعات العربية منذ عقود، بتعاون مقصود او عرضي بين الحكّام المستبدين المزمنين والقوى المتشددة، وحصل نوع من المهادنة بإطلاق الحملات الايمانية تزلفاً للجماعات المتشددة والسلفية وكسبا لولائها، وتحجرت مناهج التعليم وتراجعت مستويات الجامعات ومتخرجيها، فضلاً عن اندراج مجموعات كبيرة من قادة الثقافة العربية في المشروع السياسي الرسمي، ومحاولتهم تجميل خطايا الانظمة الشمولية ، كما فعلت حشود المثقفين العرب مع صدام حسين ثم وقفت بعد الاحتلال ضد مثقفي العراق وحاصرتهم. لقد كفلت معظم الأنظمة الشمولية لحشود المثقفين المرتزقة، الحماية والأموال الدفاقة والجوائز الكبرى التي تلقمهم حجر الصمت إزاء تردّي أوضاع المجتمعات وتهاوي البنى الاقتصادية.

حشد كبير من مثقفي المهرجانات المزمنين وأدباء المؤتمرات المؤبدين، باتوا يموّهون الجذام الثقافي بأقنعة الجوائز والبيانات الرنانة، وهم في الحقيقة ينخرون بنية الثقافة بتواطؤاتهم مع الأنظمة المستبدة وقبول الجوائز التي يهبها لهم المستبدون والتعاون مع رأس المال المحافظ بشروطه ومحدداته ليهمين عبر سلطة المثقف ونجوميته على مقدرات الثقافة العربية وجعلها رهينة سياساته ونظرته المحافظة الى الحياة الإنسانية.

تكمن أسباب خواء الحياة الثقافية أولاً في تحلل الهويات الوطنية وتشرذمها وعجزنا عن التوصل الى تبني هوية مركبة من عناصر عدة، وهي طريق الخلاص الوحيد من التشدد والشوفينية والتناحر.. فأنت مسيحي سرياني وعراقي وهو مسلم عربي عراقي او مسلم كردي او تركماني او مندائي عربي عراقي والكل في المحصلة عراقيون كما هو الشأن في الولايات المتحدة وكندا،فهناك لا يقال هذا ايرلندي او ألماني او فرنسي او عربي، بل هو أمريكي بهوية فرعية وتلك هويته الضامة التي تلحم الهويات الفرعية بصمغ المواطنة والولاء.

يتوقف هذا الوعي بالهوية المركبة على جهد المثقفين المتنورين المستقلين من الأطياف المختلفة وأنظمة التعليم والمؤسسات الثقافية المستقلة.

وتكمن أسباب الخواء في عجز المثقف الجاد عن الوصول الى المتلقي ونشر نتاجه وتقديم فكره وعروضه المسرحية وأفلامه وموسيقاه، الا في ما ندر. فوسائل الإعلام وكثير من دور النشر المتنفذة، خاضعة في معظمها للأنظمة او المتعاونين معها، ويملك حشد من المتشددين وسائل إعلام ونواد ثقافية ومؤسسات نشطة ممولة من الحكومات والجماعات المتطرفة، وفي وسع هؤلاء إيصال أصواتهم وأفكارهم الى ملايين المتلقين الواقعين في هوة الفراغ عبر نشر ثقافة التحريم والترهيب.(وللحديث بقية..).

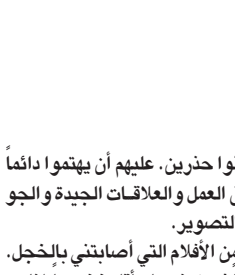

جان كوكتو يكتب عن فيلمه "دم شاعر"

ترجمة: نجاح الجبيلي

معظم خرافات آيسوب لها مستويات ومعان عدة. هناك تلك التي تصنع أساطير لها باختيار بعض الملامح التي تتناسب مع الخرافة، لكن بالنسبة لمعظم الخرافات فإن هذا هو الوجه الأول والظاهري فقط، هناك الأخرى التي هي أكثر فعالية وجوهرية وعمقاً إذ لا يمكن فهمها". (مونتين)

غالباً ما يقال بأن فيلم "دم شاعر" هو سريالي. غير أن السريالية لم تكن موجودة حين فكرت بصنعه، وعلى العكس فإن الاهتمام الذي ما زال يثار ربما يجئ من الانفصال عن الأعمال التي يصنف معها، أتكلم عن أعمال الأقلية التي عارضت الأغلبية وحكمتها بشكل جازم على مدى القرون. هذه الأقلية لها أوجهها المعادية. وفي زمن فيلم "دم شاعر" كنت الشخص الوحيد لهذه الأقلية الذي يتجنب المظاهر المدروسة للاوعي لصالح نوع من النوم الجزئي الذي تجولت فيه وكأني في متاهة.

وجهت نفسي فقط إلى النحت البارز وتفاصيل الصور التي ظهرت من الظلام الكبير للجسد الإنساني. تبنيتها عندئذ هناك كمشاهد وثائقية لمملكة أخرى.

وذلك هو السبب في أن هذا الفيلم، الذي له أسلوب واحد فحسب هو مثلاً وقفة أو إيماءات الإنسان، يقدم العديد من الأوجه لتفسيره. إن تفاسيره لا تعد. وإذا ما سوئلت عن واحد منها فسوف تكون لدي مشكلة في الجواب.

إن علاقتي بالعمل كانت مثل تلك التي لنجار الأثاث الذي يجمع قطعاً لمنضدة ويستشير محضري الأرواح الذين يصنعون حركة المنضدة.

إن فيلم "دم شاعر" لا يستقي شيئاً من الأحلام أو الرموز. وطالما تعلق الأمر بالأحلام فإنه يبدأ من أو الياتها بالسماح للعقل أن يرتاح كما في النوم ويدع الذكريات تتواءم وتتحرك وتعبّر عن نفسها بشكل حر. وبالنسبة للرموز فهو يرفضها ويستعيض عنها بالأفعال أو ترميزات تلك الأفعال التي يستطيع المشاهد أن يصنع منها رموزاً لو رغب.

إن الأخطاء الكثيرة لفيلم "دم شاعر" تنتهي بإعطائه جاذبية معينة. مثلاً، أنا الأكثر تعلقا بالصور. وهذا يمنحه بطأ مقززا، حين شكوت من هذا مؤخرا إلى "أندريه جيد" أجاب بأني كنت على خطأ إذ أن هذا البطء كان إيقاعي الخاص المتأصل بي في ذلك الوقت الذي صنعت فيه الفيلم وأن تغيير الإيقاع سوف يفسده.

إنه على حق بالتأكيد. فأنا بلا شك لم أعد حساساً لـ"عنصر الإله" الذي يتكلم عنه وأن هذا الفيلم يستعمل ويسيء استعمال. ولأني أعرفه بالتفصيل أستطيع أن أراقب الأفعال فقط، أما البطء الذي يتبع به الواحد الآخر فهو يخفي البقية عني.

العديد من الناس يعلنون بأنهم يفضلون الحقيقة الأشد فتوراً في مثل هذه الفانتزيات، هناك فئة تتهم الفيلم ،لأسباب تتعلق بانتهاك المقدسات، بأنه لم يمر حتى من سطح عقلي الخاص، وأخرى تجد فيه العجائب إذ أنا نفسي رغبت أن أضعها هناك. وفئة ثالثة تتهم الفيلم بالغرابة، الفكرة الصحيحة الوحيدة هي من التقنيين إذ يتفقون جميعاً على أن الصور متماسكة وفعالة.

لا توجد موسيقى فيلم أجمل وأكثر أصالة من موسيقى "جورج أوريك" ولا تصويراً أكثر دهشة من تصوير "بيرينال"، وكنت محظوظاً لمثل هذه المساعدة في مشروع كان في غاية المخاطرة عند البدء به.

إن ما يميز حقاً فيلم "دم شاعر" كما اعتقد هو التحيز الكامل لما يجده العالم "شعرياً"، وعلى العكس كان الاهتمام منصباً على خلق مركبة للشعر – سواء استعملت بتلك الطريقة أم لا.

هل اختيار الأبطال غير مهم؟ إنهم مبتدئون، وحضورهم يفتقد الممارسة مثل الممثلين الذين كان واجبهم الوحيد هو أداء دورهم. أدت دور التمثال "لي ميلر" صديقة "مان ري" و لم تكن قد مثلت أبداً في فيلم ولم تمثل بعده، رأيناها مرة أخرى عام ١٩٤٥ وهي لم تتغير. أدى دور الشاعر "أنريكو ريفيرو" شاب شيلي اختير لمظهره الهادئ. أدى دور صديق لويس الخامس عشر "جان دسبورد".

أدى دور الملاك الأسود "فيرال بنغا" وهو راقص جاز. الطلاب كانوا مساعدين. باربيت، بولين كارتون وأوديت تالازاك لم يظهروا إلا فترة وجيزة.

في النسخة الأولى من الفيلم كان "فسكونت وفسكونتة نويل" وأمير وأميرة فوسجني لوسنج والليدي أبدي في مقصورة المسرح على اليسار. لكن حين رأت عائلاتهم أنهم يصفقون للانتحار منعوه. فكان علينا أن نعيد تصوير مشهد المقصورات بكورس صامت وبالحضور الودود لباربيت.

كان فيلما "العصر الذهبي" و"دم شاعر" بتفويض من "فسكونت نويل". كانت الفضيحة الدينية للأول قد طفحت على الآخر، الناس الغافلون صنعوا منها مكيدة. ظل الفيلمان مخفيين بأمان وأصبح "فسكونت نويل" رداً على إيماءة فريدة في فرنسا، ضحية المضايقات السيئة.

وبقينا حتى عام ١٩٣١ إذ استطعنا أن نعرض فيلمينا، وقد عرض فيلمي في "فيو كولومبيه" بطبعة وتوليف وعرض رديء وآثار الفضائح والمعارك دون أن يكون قادراً على الدفاع عن نفسه ببريق شهرته، وقد تم الاعتراف به لاحقاً بفضل الجامعات التي طلبته وعرضته وعدته موضوعاً للدراسة.

معظم الناس الذين ساعدوني أصبحوا شخصيات مهمة في عالم السينما. حين التقيتهم كنا نتحدث بشغف عن ذكرياتنا المشتركة.

وأود أن أضيف أن الحظ أرسل إلي "جورج برينال" الذي بدون مهارته كان فيلم "دم شاعر" سيختفي عن الأنظار. يا له من زمن جميل! لقد أرسلت سبع برقيات إلى سبعة مصورين وكان "برينال" هو أول من ظهر.

كان "ميشيل أرنو" مساعدي، مثلما كان "بيج" و"فيغويه" وبومبرنيت"، والذي هو الآن المساعد الأول لـ"مارك أليغريه".

أصبحت الآنسة ميللر صحفية ومصورة فوتوغرافية معروفة. ريفيرو ميت الآن. دسبورد ميت الآن بعد أن جرى تعذيبه وقتله على يد الميليشيات في شارع "بومب" عام ١٩٤٣.

سوف تعترفون أنه من الصعب لي أن أعدّ مثل هذا الفيلم دون أن أكون متأثراً بالظروف الذي غذته. ويشبه الأمر النظر فقط إلى طرفه – إن لم يكن الحلم قد منحه هالة أو أن الكاميرا قد أمسكت مسبقاً بتلك الميزات التي لن يكتشفها المرء أبداً في الناس والأشياء.

لاحظت غالباً هذه الظاهرة. من المهم بالنسبة للمخرجين أن يأخذوها بنظر الاعتبار. يجب عليهم أن يكونوا حذرين. عليهم أن يهتموا دائماً باختيار فريق العمل والعلاقات الجيدة والجو الذي يحيط بالتصوير.

أعرف العديد من الأفلام التي أصابتني بالخجل. لا أعرف أحداً في زمني كان أقل خضوعا لمناهج الفن مثلي ولهذا السبب فهذا الأمر لن يجبرني على أن أثقل نفسي بالأمثلة.

وختاماً أن فيلم "دم شاعر" و فيلمي الجديد "الجميلة والوحش" هدفهما التحمس لمصارعة الثيران. وصحيح أني لم أقتل الثور طبقاً للقواعد. لكن قلة احترام القوانين تصاحبها الاستهانة بالخطر الذي يثير عدداً كبيراً من الناس.

فيلم "دم شاعر" فيلم بالأبيض والأسود صنعه جان كوكتو عام ١٩٣٠وهو الجزء الأول من ثلاثية أورفيوس.

مونتاج وتعليق وسيناريو: جان كوكتو، موسيقى: جورج أوريك، مدير التصوير: ساشا منصور، تمثيل: لي ميللر (التمثال)، إنريك ريفيرو (الشاعر)، بولين كارتون(معلمة الطفل)، فيرال بنغا(الملاك الأسود).

العرض الأول عام ١٩٣٢